نهاية الرحلة

هربت بالمال ناحية أمها .. لم تجدها حيث تركتها .. أخذت تبحث عنها هلِعة .. كانت هناك تصرخ، تستنجد بمن حولها أن يعيدوا طفلها من يد سارقيه .. هي خلفهم وهم يدفعونها لا قدرة لأحد على صدِّهم فهم مُسلَّحون حتى إذا ما لاحت الشرطة لهم من بعيد دفعوه إلى أحد المارة وانطلقوا نحو مركبتهم المركونة في الناحية الأخرى من الطريق وقبل أن تصل الشرطة كانت قد التقطت صغيرها وهربت .. لحقت بها طفلتها وهكذا من مكان إلى مكان ومن ممر إلى آخر حتى استقروا في بُقعة مُظلمة بعيدا عن الأنظار .. تفقَّدت حال طفلتها، سألتها أين عمُّها، فأجابتها أنّه أعطاها المال ولا تعلم مالذي جرى لـه بعدها .. احتضنتها .. ضمَّتها بشدة إلى صدرها .. كانت تعبة فغفت لساعات لتستيقظ فجأة على أصواتهم .. لقد داهموا المكان ولن تُفلت هذه المرة من قبضتهم .. اختطفوه ثانية .. رطموها بالجدار .. صرخت فيهم: سأدفع لكم ضعف ما سيدفعه لكم شرط أن تعيدوه إليّ ثُمَّ أرتهم البرهان الذي حاولوا أخذه عُنوة فهدَّدتهم بأنّها ستمزِّق أمامهم .. غذاء أرواحهم وقاتل ضمائرهم .. تراجعوا .. وضعوه منتصف الطريق .. حملته .. ابتعدت كفاية حينها نثرت تلك

الأوراق اللعينة القابلة للاحتراق في الهواء وهربت .. تركوها منشغلين بجمع ما تناثر .. ذهبت إلى أحد الملاجئ التي أخبرها عنها .. استقرَّت هناك لبعض الوقت إلا أنها سُرعان ما غادرت لقد وجدوها ثانية .. يومان مُتتابعان مَشيًا على الاقدام .. أفواه جائعة .. أجساد مرهقة وطفل بحاجة إلى رعاية صحية .. لم تستطع متابعة المسير فاستلقت على الأرض داخل دهليز قُرب طريق لم تكن تعلم أنّها طريق تكتنفُها المومسات .. أتت إحداهن تسألها عمّا بها ..

ـــ إني جائعة ..

ـــ هل تريدين بعض المال؟

ـــ نعم ..

ـــ خذي فنهرتها زميلتها: لا تكوني طيبة هكذا ألم تتعبي للحصول على هذا المال .. إن كانت تُريده حقا فعليها أن تسعى إليه أليس كذلك؟ وأردفت ترمقها بنظرة حارقة سألتها: هل تريدين كسب بعض المال ..

ـــ نعم ..

ـ بثقة: ذلك سهل .. سأعرِّفك على رجل سيُعطيك مُقابل الساعة مئة دولار .. إنه يُحب الشقراوات وإن أحسنت التصرف فسيمنحك أكثر .. هذا

وإن قبلتِ فلي أجر مقابل مساعدتك .. عشرون دولارًا لا غير مُقابل كل مئة تحصلين عليها .. ها .. ماذا قلتِ؟

ــ ظلت تنظر إليها لبعض الوقت كالشاردةً ثمَّ أجابت بصوت مبحوح: مئة دولار ..

ــ نعم مئة دولار وأكّدت: ولي عشرون مقابل مساعدتك ..

ــ نهضت بصعوبة .. طلبت من صغيرتها أن تعتني بأخيها أن تنتظرها ريثما تعود .. دقائق أتى بعدها يتباهى بمركبته الفارهة .. ما إن رآها حتى أُعجب بها بالرغم من شحوبها ونحولها .. جعل يُداعب خصلات شعرها وهي تصدُّ عنه يمنة وشمالا حتى إذا ما قبض على ذراعيها دفعته بقوة وسحبت نفسها إلى الوراء: لا أريد .. لا أريد .. أفضل الموت على هذا ..

ــ عزيزتي .. سأدفع لك الضعف .. ما رأيك .. إلا أنها تجاهلته واستمرت في طريقها ..

ــ فنادتها مذكِّرة إيّاها: أطفالك سيموتون من الجوع أيتها الحمقاء فاندفعت في وجهها كالموج الغاضب: وما أدراك .. هل تعلمين الغيب .. أخبريني .. هل كُلُّ الناس يموتون بسبب الجوع؟ ألم تسمعي يومًا بأُناس رحلوا ببطون مُترعة؟ .. ثمّ ومن تكوني أنت حتى تنصحيني .. أنت كحال كُلُّ النسوة حولك .. ميتة منذ زمن وتدَّعين الحياة .. اصمتي .. وأبعدي

كلبك المسعور هذا قليلا إن كنت تريدين حقًّا مساعدتي .. ابتعدت إلا أنها سُرعان ما ترنَّحت لتسقط على الأرض مغمىً عليها: مالذي جرى لها؟

ــ لقد ارتشفت شيئًا من مشروب الطاقة خاصتي والذي لم تستسغه كما لم أستسغ حديثها .. هيا ساعدني لإدخالها قبل أن تنهض ..

ــ كم أحبُّك ..

ــ عبِّر عن ذلك بالمال عزيزي ..

ــ انطلق بها .. دقائق واستيقظت .. تلفَّتت حولها .. علِمت .. حاولت ثنْيه .. إيقافه ولمّا لم تفلح رمت بنفسها خارجًا .. كادت مركبة أن تدهسها ومن حُسن حظِّها أنها تفادتها .. نهضت مُثقلة بالأوجاع .. بالمخاوف والشكوك التي جعلت أوجاعها تتفاقم .. أخذت تسأل هذا وذاك عن طريق تكتنفه المومسات اللاتي تفاجأن بها .. بحالها الذي يستجلب الآهات وانبرت نحو البُقعة حيث كانت هناك .. لم تكن ولم يكن هناك .. نادت وما من مجيب .. خرجت تسأل عنهم وإذ به أمامها .. لقد عاد بإلحاح شديد .. لم يستسلم بعد: عزيزتي .. أعتذر عمّا بدر مني .. أنت من دفعني إلى ذلك .. فأنتُنَّ نقطة ضعفي .. الشقراوات .. المُتوحشات منهنّ خاصة .. سأدفع لك ألف دولار فقط لا تخيِّبي ظني هذه المرة .. تجاهلته .. لحق بها فصدَّته وكان قد ضاق ذرعًا بها فحاول إرغامها

فتعاركت معه إلا أن المُتفرِّج سيعلم يقينًا أنّها معركة خاسرة منذ البداية .. فأنّى لغصن سنديان يابس أن يقف في وجه إعصار لا يرحم، سيأكل الأخضر واليابس إلا أنّها بالرغم من ذلك دافعت عن نفسها قدر استطاعتها حتى خارت قواها وانهارت .. إنّها تشعر بالظلم وباليأس وهي تنظر إليه .. إلى ابتسامته التي ملأت شدقيْه .. دفعت راحتها في وجهه .. في محاولة يائسة لصدِّه .. لقد آن أوان الاستسلام فاستسلمت إلا أنها لحظة مرَّت ثم اختفت حينما أتت إحداهن .. دافعت عنها بشراسة ليخرج خاسرا مع خدوش .. جروح وملابس مُمزقة .. مع تهديد صارم بقطع رزقها .. ساعدتها .. طلبت منها الرحيل حالا قبل أن يعود .. سألتها فأجابت .. أنَّ رجالا أتوا يبحثون عنهم فدلَّتهم تلك الماكرة على مكانهم غير أنهم لم يكونوا هناك .. بحثوا طويلا ثُمَّ رحلوا بعد أن بصقوا في وجهها: هي غاضبة .. قادرة على فِعل أيِّ شيء .. من الأفضل أن ترحلي .. فالمكان لم يُعد آمنا ..

ــ وماذا عنك؟

ــ لا تقلقي .. فقط اذهبي ..

ــ ما إن ذهبت حتى أتت تلك الماكرة من بُصِق في وجهها تسأل: أين هي؟

ــ لقد رحلت ..

ــ أيتها الحمقاء .. ألم أمنعك من مساعدتها .. إنه غاضب ولا سبيل لتهدئته .. ستأتين معي غدا .. سترضينه من دون مقابل .. عسى أن يتجاوز عنك ..

ــ لا تُتْعبي نفسك .. فأنا راحلة عن هذا المكان وإلى الأبد ..

ــ ولكن لِمَ؟

ــ لا أريد أن أكون ميِّتة تدَّعي الحياة ..

ــ أصدَّقتِ تلك الغبية .. هي بحاجة إلى المال .. لن تموت ولن تدع أطفالها عُرضة للموت أيضا .. ستحصل عليه بطريقة أو بأخرى .. إنها مسألة وقت ومبادئ ليس إلا ..

ــ مال .. نعم .. لقد نسيت إعطاءها بعض المال ..

حاولت اللحاق بها ولكنها كانت قد اختفت ..

عادت أدراجها .. تخطو بمشقة .. تستعين بالنتوءات البارزة من جدران حقيرة تنثر الرماد وسط مكان موحش .. مُعتم ليس بأشد من العتمة التي تشغل صدرها .. تُنادي بالرمق الأخير المُتبقي من أنفاسها .. إنها في شتات .. بحاجة إلى من يواسيها .. من يضُخ الدماء كي يُحيي خافقًا .. كي يُضيء مَبسمًا .. كي يوقف هدير دمعها: أمي أمي .. ما إن رأتها حتى احتضنتها .. ضمَّتها إلى صدرها بقوة: أين كنتِ؟

ــ خشيت أن يجدوني فاختبأت هناك؟

ــ حسنًا فعلتِ .. أمسكت يدها، حاولت جرَّها إلى مخبئها .. غرفة مهجورة خلف سوق شعبي مُكتظ بالناس: دعيني عزيزتي وعودي .. فأنا بمأمن هنا .. أحضرت أخاها وجلست قُرب والدتها .. أخرجت المنديل تمسح ما تناثر من دمعها، تواسيها قائلة: أمي نحن بخير .. لا تقلقي ..

ــ تفاقم وجعها .. أمام عجزها .. ضِعف فلذة كبدها وجوعها .. أمام حال رضيعها الذي لم يعُد يبكي: لستِ أنتِ .. من يجب عليه مَسح دمعي، بل أنا .. من يجب عليه فِعل ذلك .. أعتذر ..

لم تغفُ الصغيرة بل ظلَّت قُرب أمها ترعاها حتى غفت .. تسلَّلت خارجًا تبحث عن مشترٍ للمنديل (تعمل بوصية عمِّها) .. ولكن من الذي يتجرَّأ على شراء منديل باهت اللون مُتذبذب الأطراف .. حاولت .. توسَّلت .. بذلت جهدها ولكن ما من فائدة إلا أنها لم تستسلم .. استمرت وجعلت تعرضه على المارة .. كان من بينهم امرأة ما إن رأته حتى استأذنتها بلَمسه .. تأمّلته لثوان: صغيرتي من أين لك هذا المنديل؟

ــ أهداني إيّاهُ عمي ..

ــ وأين هو ؟

ــ لا أعلم .. صمتت فرجتها أن تشتريه: إنه بمئة دولار فقط ..

ــ وما حاجتك إلى هذا المبلغ الكبير ..

ــ أمي تعبة بحاجة إلى الطعام وكذاك أخي ..

ــ وماذا عنك ألستِ جائعة؟

ــ نعم سأتناول الطعام معهم ..

ــ هل أستطيع رؤيتهم؟

ــ لا .. لا تستطيعين .. هيا أرجوك أعطيني المئة دولار ..

منحتها إيّاها وجرت بابتسامة عريضة .. حاولت إيقاظ أمها التي لم تستيقظ .. حاولت مُجدّدا فلم تفلح .. جعلت تصرخ فيها وتبكي وهي تنفضها .. خفقات قلبها تجري كالدمع الذي يجري حثيثا على خدِّها .. خائفة مذعورة وسط صمت يلفُّها بإحكام ولا زالت حتى تفاجأت بالسيدة صاحبة المنديل الجديدة .. طمأنتها .. ادعت أنّها خالتها .. أمرت الحراس أن ينقلوا الأم ورضيعها إلى المستشفى حالا بينما اصطحبت الصغيرة معها ..

ظلَّت تنظر إلى المنديل تقلِّبه وهي تجيب على أسئلتها التي لم تتوقف والتي كان آخرها: خالتي هل أعجبكِ المنديل؟

ــ أجابتها تسترجع الماضي: لن تُصدِّقي .. لقد كُنت أملك هذا المنديل يومًا ثمَّ التفتت إلى السائق تسأله: هل أهديت زوجتك المنديل؟

ــ بارتباكٍ واضح وباعتذار خجِل: أعتذر سيدتي لأسباب عدة أهديته لشخص آخر ..

ــ امم ..

ــ سيدتي أعتذر ..

ــ لا عليك .. الذنب ليس ذنبك .. إنّه يبقى ذكرى جميلة ما كان عليَّ التفريط بها منذ البداية ..

تمَّ القبض على الزوج مُتلبسًا بينما رحلت العائلة بصحبة السيدة التي اكتنفتها ووفرت لها الأمان .. السيدة ذاتها التي دفعت نصف ثروتها لقضاء ليلة بصحبة الرجل الذي تُحب .. تزوَّجت مُؤخرا من رجل استحقَّها بجدارة ..

وحقيقة ..

أنَّ منديلي لم يعُد برّاقا مُلفتًا للأنظار ..

ناعمًا كما اعتاد أن يكون ..

إلا أنّه لا يزال مُحتفظا بنقوشه التي جعلت منه مُتفرِّدا ..

وبعطره الذي عاد بعودة صاحبه الذي منحه مكانته التي تليق به ..

داخل قلبه وقريبا منه ..

منديلي .. كان حاضرا في كلِّ حدثٍ من الأحداث التي ذكرتها آنفًا

إلا أنَّه لم يكن شاهدا على الإجابات التي لم أرسم حروفها بعد ..

ــ لِمَ عليَّ العودة معك؟

ــ لِمَ تخليتِ عنه؟

ــ لِمَ ترغبين في رحيلي؟

ــ لِمَ فعلتِ ذلك؟

ــ لِمَ قبَّلتني؟

ــ لِمَ قتلت؟

ــ لِمَ قَبلتِ؟

ــ لِمَ أفلست .. لِمَ سرقت وخدعت ؟

ــ لِمَ تزوجتني؟

ــ ولِمَ سمحتِ له بذلك؟

ــ أيها الأحمق .. لِمَ فعلت ذلك؟

أسئلة تتالت وأجوبة اندست .. تدثَّرت بالفراغ .. آن الأوان لها أن تكشف عن نفسها ..

هي إجابةٌ واحدة .. لظروف تعدَّدت ..

لأجناس من البشر لم يختلفوا على المبدأ بينما تمايزوا في الوسيلة ..

" لأني أحبك "

نعم .. فالحب هو الإحساس الوحيد الذي لا يقبل المساومة .. المنافسة أو المشاركة ..

يغفر لمن يشاء .. يختلق الكذبة ويتمسَّك بها ..

مغرورا ولا زال ..

إلا أنَّه بالرغم من كلِّ ذلك ..

يبقى .. جميلا .. مُرهفًا .. بسيطًا في معناه ..خالٍ من التعقيد ..

يبدو .. كاللوحة المُعلَّقة دون إطار ..

تنقاد أناملك تلقائيًا كي تتلمَّس غشاءها ..

فتنساب دون إرادة منك لتصبح داخل اللوحة لا خارجها ..

أنت الآن جزء لا يتجزَّأ من عالم تدور أفلاكه حول نواة واحدة أصلها من حرفين .. ولن يملَّ الحُّب منك حتى تملْ ..

ولن تملَّ حتى تصبح خارج الإطار ..

ولن تفعل ..

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت
أستغفرك وأتوب إليك

تمت بحمد الله